قصة الشهر

ثمن التابوت

للقاصة الاميركية بيرل باك

مترجمة بقلم منير البعلبكي

تتمتع بيرل باك Pearl S. Buck ، القاصة الاميركية ، بشهرة عالمية موموقة . وُلدت في هيلزبورو ، بفرجينيا الغربية ، سنة ١٨٩٢ ، ولكنها عاشت اكثر حياتها في الصين حيث عملت أول الأمر بوصفها احدى مبشرات الكنيسة المشيخية (البرسبتيرية) ثم انصرفت الى تأليف الروايات والقصص القصيرة . وفي آذار سنة ١٩٣١ اصدرت روايتها العظيمة « الأرض الطيبة The good Earth »، فتلقاها النقاد بعاصفة من الترحيب رفعت اسم بيرل باك الى الذروة بين كتاب القصة في اميركة، وأقبل عليها جمهور القراء اقبالاً جعلها في طليعة الكتب الأكثر رواجاً طوال سنتين كاملتين . وجميع روايات بيرل باك وقصصها القصيرة تدور على الصين والحياة الصينية . وهي تمتاز على الجملة بقوة العنصر الانساني وبراعة التصوير على ما ترى في قصة « ثمن التابوت » التي نقدمها اليوم الى القراء ، والتي نالت احدى جوائز أو. هنري O. Henry التذكارية عام ١٩٣٣ .

م.ب

« ان الطريقة الوحيدة لتطويع هؤلاء الخياطين الوطنيين ، يا عزيزتي تتلخص في ان يكون المرء حازماً ! »

قالت مسز « لو » ، زوجة مدير البريد ، ذلك وهي تحشر جسمها بشيء من الصعوبة في الكرسي الهزاز ، فوق شرفة بيتها الواسعة . كانت امرأة بدينة، ذات وجه يشيع فيه الدم بسبب من الافراط في الطعام والانصراف عن الرياضة طوال هذه العشر السنوات الغريبة التي قضتها في احد المرافيء القائمة على الساحل الصيني ، وهوذا وجهها المربّع الجافي يزداد الآن، وهي تتطلّع الى زائرتها ثم تتكلم ، حمرةً على حمرة . وكان يقف الى جانبها خادم صيني أعلنها منذ لحظة ، في صوت وديع ، ان الخياط قد حضر .

وتطلعت مسز « نيومان » الى مضيفتها في إعجاب غامض، ثم زفرت قائلة، وهي تحرك مروحتها المصنوعة من سعف النخل، في تؤدة ورفق :

ـ ما اكثر ما اتمنى اصطناع طريقتك معهم يا آدلين . فأنا أزهد في الثياب الجديدة ، في بعض الأحيان، على الرغم من رخصها هنا ، وبخاصة إذا اشترى المرء الحرير الوطني ، ولكن المشكلة هي دائماً مشكلة الخياطين ، فان خياطي يعدني ، كل مرة ، بانجاز الفستان في مدى ثلاثة ايام ، ثم لا يعود الا بعد اسبوع او اسبوعين !

وهنا خفت صوتها فما يكاد يبين وتنهدت تنهدة عميقة واسرعت يدها في تحريك المروحة بأقوى مما كانت تفعل من قبل.

وفي لهجة شبه آمرة قالت مسز « لو » : « راقبيني الآن ! » ثم حوّلت عينيها المدورتين القاسيتين الرماديتين الى الخادم الصيني الواقف أمامها في خضوع وقالت : « قل للخياط ان يأتي الى هذه الجهة ! »

فهمهم الخادم : « نعم ، يا سيدتي » وانصرف .

ودخل الخياط على السيدة الاجنبية مقتفياً آثار الخادم . كان رجلاً فارع الطول ، اطول من الخادم ، كهلاً ذا وجه وديع ينضح بضرب من الهدوء المنقبض . وكان يرتدي ثوباً طويلاً أزرق اللون حائلاً ، مرقعاً عند المرفقين ولكنه بالغ النظافة . وكان يتأبط بقجة من قماش ابيض ، حتى إذا اقترب من

السيدتين البيضاوين انحنى في احترام، ثم جلس القرفصاء، ووضع الصرة على ارض الشرفة وطفق يحل عُقدها ... كان في داخلها عدد متهريء من احدى مجلات الأزياء الأميركيـــة ، وثوب نصف مخيط من الحرير المبقع بالأزرق والأبيض. وحمل الخياط الثوب في عناية بالغة ورفعه إلى مسز « لو » لتراه . كان واضحاً من اتساع تقاطيعه أنه مفصّل لها . فألقت عليـــه نظرة باردة وشرعت تقلّب البصر في أجزائه كلها بروح عدائية ترشح لؤماً .

وفجأة قالت مسز « لو » في صوت عال : « انا لا أريدهذه « القبة » . لقـد اخبرتك اني اريد « كَشكشاً » ... انظر الى الزي في الكتاب » . وقلبت صفحات المجلة في سرعة حتى انتهت إلى القسم المخصص لفساتين النساء البدينات : « انظر ! إني اريد مثل هذا الزي . لماذا صنعت لي «قبة» مسطحة ؟ انا لا اريدها ! انا لا اريدها ! ابعدها عن عينيّ ! »

وتفصّد العرق من جبين الخياط الهاديء الصبور ، وقال في صوت يخنقه الأسى : « كما تريدين يا سيدتي » . ثم انه أخذ نفساً وأضاف : « سيدتي ، لقـد طلبت مني أول الأمر ان اعمل لك كشكشاً ، ثم قلت انك لا تريدين الكشكش وانما تريدين قبةً ملساء ...» ونظر متضرعاً إلى المرأة البيضاء ، ولكن مسز لو أبعدته عنها بيد سمينة تزينها الخواتم ، وصرخت مقطّبة : « لا ، إنك تكذب . فأنا لم أقل قط إني اريد قبة ملساء . لا لم أقـل قط . فليس ثمة سيدة ترضى ان تلبس اليوم قبة ملساء ، تلكهي الموضة الشائعة في هذا الموسم ؟ »

ـ « نعم يا سيدتي » قال الخياط . وكأنما لمعت في ذهنـه فكرة فتساءل : « هل عندك فضلٌ من القماش نفسه يا سيدتي ؟ فقد أعمل لك كشكشاً للقبة ... »

ولكن مسز « لو » لم تكن من اللواتي يمكن استرضاؤهن في سهولة ويسر . فقالت : « حسناً ، لا بأس . ولكنك بهـذه الأساليب تتلف كثيراً من القماش . ماذا تظن ؟ هل اشتري انا القماش من غير دراهم ؟ انك تخسّرني كثيراً من المـال باعمالك هذه ! » وهنا التفتت الى زائرتها واستطردت : « كنت اعلّق آمالاً كبيرة على هذا الثوب ، يا ميتّي ، وها هو ذا بين يديك فانظري اليه ! كنت أودّ أن البسه في حفلة السّمر التي ستُحيا في القنصلية بعد غدٍ ، وقد قلت له انْ يصنع لي كشكشاً ،فصنع لي قبة ملساء. عزمتُ عليكِ إلاّ نظرتِ إلى هذه القبةالسخيفة!»

ـ « أجل انا أدري . ذلك ما كنتِ اقوله تماماً . » قالت مسز نيومان ذلك ثم اضافت بصوتها الضعيف : « ولكن كيف السبيل الى تدبير المسألة الآن ؟ »

ـ لا عليكِ ، سأدبرها !

ثم انها تجاهلت الخياط لحظة ، وأنشأت تحدّق الى جنينتها الوارفة الانيقة ، وقد تألقت ازاهرها تحت وهج الظهيرة من ايلول . وتطاول صمتهـا ، والخياط واقف لا يريم وقد استبدّ به القلق والجزع . وتحدّرت على وجنتيه قطرتان من عرق ، فرطب شفتيه الجافتين ثم قال في صوت مرتجف :

ـ ألا تريدين ان تقيسي يا سيدتي ؟

فنبرت بـــه مسز لو : « لا ، لا اريد . ولمـاذا أقيس ؟ الفستان كلـه غلط ، والقبة كلها غلطٌ فما الفائدة من القياس . » قالت ذلـك وهي ما تبرح تحدّق الى الجنينة المشتعلة ازهارهـا تحت اشعة الشمس الوهاجة .

فما كان من الخيـــاط إلا أن أجابها بلهفة وتضرّع : « إني مستعد لأن اصنع لك الكشكش الذي تريدين . اجل . اجـل يا سيدتي . سأعمل لك ذلك الكشكش . فمتى تريدين ان يكون الفستان جاهزاً ؟ »

فقالت المرأة البيضاء : « أريده غـداً . اريد ان تحضره الي في الساعة الثانية عشرة . امـا اذا لم تأت به في ذلك الموعد فعندئذ لا أدفع لك فلساً ! أفهمت ؟ انت دائماً تسألني مـــتى أريد ان يكون الفستان جاهزاً ؟ ولكنـك تخلف في كل مرة الميعاد المتفق عليه . »

وهنا أجاب الخيـــاط : « سآتيك به غداً في الثانية عشرة يا سيدتي » وجلس القرفصاء ، وأعاد الفستان الى البقجة البيضاء ، وعقدها في رفق وكأنما هو يخشى ان يحطم شيئاً . ثم انه نهض ووقف ينتظر ، وقـــد طغت على وجهه موجة من ابتهال . والواقع ان روحه كلها تفجّرت في هذا الابتهال الصامت فاذا هي منطبعة على وجهه الهاديء، المرتفع عظم الوجنتين. وتصبب جبينه عرقاً ، كرّة اخرى، وحتى مسز لو لم يفتها ان تقرأ مأساة تلك الروح على وجهه ، فوقفت كرسيّهـــا الهزاز عن الحركة وتطلعت اليه . متسائلة بحدة :

ـ ماذا دهاك ، هل تريد شيئاً بعد ؟

فبلل الخياط شفتيه من جديد وقال في صوت تخنقه اللوعة: « سيدتي ، هـل تستطيعين ان تعطيني قليلاً من المال ـ دولاراً مثلاً او دولارين ... » حـتى اذا رأى الى نظرتها الهائجـة غار

صوته باكثر من السابق وازداد اختناقاً . « إن ابن اخي سيموت اليوم في ما اظن . وان له لثلاثة اطفال وزوجة وليس عندنا مـال نشتري به التابوت — لا ليس عندنا شيء — إنه مريض جداً اليوم ... »

ونظرت مسز لو الى ضيفتها ، وقد اخذتها حيرة حقيقية . فأجابتها مسز نيومان عن نظرتها قائلة : « ذلك ما قلته بالحرف . إنهم مزعجون اكثر منهم ذوي فائدة : ومع ذلك فهم لا يفكرون بشيء غير الدراهم ! »

وحوّلت مسز لو عينيها الرماديتين نحو الخياط . فلم يرفع بصره عن الارض ، ولكنه مسح شفته ، خلسة ، بردن ثوبه . وحدقت مسز لو اليه لحظة ثم انفجر صوتها في هياج بالغ : « لا . لا . عندما تنجز الفستان والكشكش ادفع اليك الاجرة . اما اذا لم تنجزهما فلن تقبض شيئاً . أفهمت ؟ »

« نعم يا سيدتي ! » قال الخياط ذلك ، وامحى من وجهه آخر اثر من آثار الامل ؛ وران عليه يأس مرير اشبه ما يكون بحجاب صفيق . ثم اضاف : « سأنجزه غداً في الساعة الثانية عشرة يا سيدتي » ومضى لسبيله .

فصاحت مسز لو من ورائه ، وهي ترمقه بازدراء : « حاول ان تفعل ! » ثم التفتت الى زائرتها وقالت : « لقد قلت له غداً رجاة ان أحصل على الثوب بعد غد » وكأنما جال برأسها خاطر ، فقرعت الجرس بقوة ، فاذا بالخادم بين يديها .

— « راقب الخياط جيداً ... وتأكد من انه لم يأخذ شيئاً ... »

واخترق صوتها المرتفع البيت ، فأجفل الخياط ، وكان لا يزال في أقصى القاعة ، بعض الشيء ، ثم غاب عن البصر .

عندئذ وجهت مسز لو الكلام الى ضيفتها : « انك لا تستطيعين ان تعرفي ما اذا كانوا يخترعون هذه القصص اختراعاً أم لا . إنهم محتاجون دائماً الى الدراهم ... انا لم أر قط مثل هؤلاء الناس . وليس من شك عندي في أنهم يجمعون مالاً وفيراً من الخياطة لجميع هؤلاء الأجانب المقيمين في الثغر . ولكن هذا الخياط أسوأ منهم جميعاً . فهو دائماً يطلب منك شيئاً من المال قبل إتمام العمل . وأذكر انه جاءني ثلاث مرات مختلفات وزعم ان طفلاً يموت او ما أشبه ذلك . اني لا أصدق كلمة مما يقول . ولا يبعد ان يكون من مدمني الافيون او من صرعى القمار . إنهم جميعاً يقامرون ، وليس في استطاعة المرء ان يصدق حرفاً مما يزعمون ! »

فتنهدت مسز نيومان وقالت وهي تنهض للمسير : « أوه ، اعرف ذلك جيداً ... »

ونهضت مسز لو لتوديعها واختتمت البحث بان أعادت ما سبق لها ان أكدته : « على كل حال ، يتعين على المرء ان يكون حازماً مع هؤلاء الناس ... »

●

لم يكد الخياط يغادر البيت الاجنبي الكبير حتى اتخذ سبيله في خفة ورشاقة عبر الشارع القائظ . حسناً ، لقد سألها ان تسلفه بعض الدراهم ولكنها لم تعطه شيئاً . لقد كان الثوب نصف مخيط وكان ينقصه الكشكش ايضاً . وقد دفعت اليه القطعة الحريرية منذ يومين ليس غير ، ففرح بها فرحاً عظيماً لأنها ستعود عليه ببعض الدولارات ينفقها على ابن اخيه الذي كان بمثابة ولده بعد ان حرمته الآلهة أطفاله الصغار ، اطفاله الثلاثة جميعاً .

وإذن فقد كان طبيعياً ان يزداد كلفاً بهذا الابن الوحيد لأخيه الأصغر المتوفى ، وهو شاب يعمل في دكان احد الحدادين ، وله ثلاثة اولاد صغار ايضاً . ومثل هذا الشاب القوي — من كان يخطر بباله ان الموت سيفترسه على هذه الشاكلة ؟ فمنذ شهرين اثنين أفلت عمود الحديد الحامي ، وكان يطرّقه على هيئة سكة محراث ، من بين كلابتيه ، فسقط على رجله وقدمه وكوى لحمها كياً حتى العظم . لقد سقط على لحمه العاري لأن الدنيا كانت صيفاً وكان الدكان الصغير حاراً جداً ، فلم يكن على جسده غير بنطلونه القطني الرقيق ملفوفاً الى فخذيه .

ومهما يكن من امر فقد عالجوه بمختلف ضروب المراهم ، ولكن اي مرهم ذاك الذي يُطلع اللحم السليم كرة اخرى ، وهل ثمة بلسم لمثل هذا الجرح المخيف ؟ لقد تورمت الرجل كلها ، وها هو ذا الفتى المسكين يتقلب على فراش الموت في هذا اليوم القائظ من ايام الشهر التاسع . كانت ثمة طبقة من الجص الأسود تمتد من وركه حتى قدمه ، ولكنها لم تكن لتجدي او تفيد .

أجل ، لقد رأى الخياط الموت جاثماً على البيت ، هذا الصباح ، حين قصد لزيارة ابن اخيه . كانت الزوجة الشابة جالسة تبكي في مجاز الغرفة الوحيدة التي يتألف منها بيتهم ، وكان الطفلان الاكبران يحدقان اليها في جزع ، وقد أقعدهما الهم عن اللعب . اما الطفل الثالث فكان رضيعاً تضمه امه الى صدرها .

واستدار الخياط نحو زقاق من الأزقة ثم اجتاز فناء يعجّ

باطفال عراة كأن بعضهم ينتحب ، وكان بعضهم يتشاجر، وكان بعضهم يصيح صيحات اللهو واللعب .

وفوق رأسه تمتد اعمدة من خيزران تتدلى منها ثياب رثة بالية غسلت بمقادير من الماء مطففة ومن غير ما صابون البتة. وهنا حول هذه الافنية كانت تقطن في كل غرفة اسرة، وكانت ربة الاسرة تصب المياه القذرة في الفناء فهو موحل تجري فيه جداول من الماء برغم الجفاف الشديد الذي اصطلت بناره المدينة منذ شهور او يزيد .

ولكنه لم يلحظ شيئاً من هذا . واجتاز ثلاثة أفنية اخرى ثم انعطف نحو باب مشرع الى اليمين وولج الغرفة المظلمة التي لا نوافذ لها . كانت ههنا رائحة من نوع آخر ، إنها رائحة اللحم العفن الذي يموت ... وارتفع صوت امرأة تندب وتعول من جانب الفراش المحجّب . والى هنا قصد الخياط ، ووجهه لا يزال يحمل الانطباعة نفسها التي طبعت عليه منذ غادر بيت السيدة البيضاء . ولم ترفع الزوجة الشابة بصرها اليه وهو يدخل. كانت جاثية في انكسار ، قرب الفراش ،وقد تندى وجهها بالدموع . وكان شعرها الاسود الطويل مسبلاً على كتفيها فهو يكاد يمس الارض. وكانت لا تني تندب زوجها وتقول : « وازوجي!.. وارجلي !.. لقد تركت وحيدة في هذا العالم ... وازوجي..»

كان طفلها الرضيع ملقى أمامها ، على الارض ، يصرخ وينتحب ، بين الفينة والفينة . اما الطفلان الاكبران فجلسا بجذاء امهما ، وقد تعلق كل منهما بزاوية من ردائها . لقد كانا ينتحبان ايضاً ، ولكنهما أخلدا الآن الى الصمت ، ورفعا وجهيهما المخططين الى عمهما .

ولكن الخياط لم يلق اليهما بالاً ، وتطلع الى ستر الفراش القنبية وقال في لطف :

— ألا تزال حياً يا بني ؟

وأدار الفتى المحتضر عينيه في عسر . كان كل جزء من جسمه متورماً تورماً مخيفاً : يداه ، وصدره ، وعنقه ،ووجهه، ولكن هذا كله لم يكن شيئاً بالقياس الى تورم رجله المحروقة التي أمست اشبه شيء بقطعة من الحطب ضخمة . كانت منطرحة هناك ، وقد بدا الفتى بسبب من ضخامتها وكأنه هو المتصل بها وليست هي المتصلة به . وتسمرت عيناه الجامدتان البارقتان بريق الموت على عمه ، وفتح شفتيه المنتفختين . وبعد فترة طويلة ومحاولة جاهدة لاستجماع الذهن وتركيزه انبعث صوته في وشوشة مبحوحة :

— هؤلاء الاطفال ...

واخذت الخياط رجفة خاطفة ، وانعكست أمارات الألم المرير على وجهه . فجلس على حافة الفراش وطفق يتحدث في صدق واخلاص :

« لا داعي لأن تجزع على ابنائك يا بني ؛ فنم في سلام واطمئنان ، ان زوجتك واولادك سوف ينتقلون الى بيتي ويملأون فيه الفراغ الذي تركه ابنائي الثلاثة ، وستكون زوجتك بمثابة بنت لي ولزوجتي ، في حين سيكون اولادك حفدة لي . ألست انت ابن شقيقي ، وقد توفي ايضاً ، ولم يبق على قيد الحياة ، الآن ، غيري ؟ »

واخذ ينشج . وكان من الميسور أن يلاحظ ان الخطوط التي انطبعت على وجهه انما رسمتها ساعات ماضية من هذا البكاء الصامت المكبوت . ذلك بان وجهه لم يتغير البتة ، حين اندفع يبكي . كل ما في الامر ان الدموع اخذت تتدحرج على خديه سخينة كبيرة .

وبعد فترة طويلة انبعث صوت الفتى المحتضر ، كرة اخرى، بالجهد المضني عينه ، وكأنما يقتلع نفسه من غيبوبة ثقيلة ليقول ما يجب ان يقال :

— أنت ... فقير ... أيضاً ..

ولكن العم سارع الى الاجابة ، مائلاً نحو ابن اخيه ، بعد ان رأى الى عينيه المنتفختين تغتمضان ولم يعد واثقاً من ان كلامه سيُسمع : « لا تُقلق نفسك ، ان عندي عملاً ، وهؤلاء النسوة البيض في حاجة ابداً الى ثياب جديدة ، وبين يدي الآن ثوب حريري يكاد يكون جاهزاً لزوجة صاحب البريد — اجل انه جاهز تقريباً وليس ينقصه غير الكشكش ، وعندئذ تدفع الي اجرته ، وقد تكلفني ان اخيط لها اثواباً اخرى . لا ، إننا سنعيش في بحبوحة ... »

ولكن الفتى لم يُجب بكلام ما ، لقد غرق في تلك الغيبوبة الثقيلة الى الابد ، فلم يعد في ميسوره ان يقتلع نفسه منها مرة ثانية .

ومع ذلك فقد ظل يتنفس قليلاً قليلا طوال ذلك النهار القائظ الذي ما ينقضي . ونهض الخياط ليضع بقجته في زاوية وليخلع ثوبه، ثم رجع الى مجلسه قرب الفتى المحتضر ولبث جامداً لا يتحرك ساعات بكاملها . وواصلت الزوجة عويلها من غير

انقطاع ، ولكنها ما عتمت ان نهكها التفجع فأسندت جسمها الى مؤخرة الفراش ، واغمضت عينيها ، وطفقت تتنهد بين الفينة والفينة تنهدات هادئة . اما الولدان الاكبران فقد ألفا المشهد ، بل لقد ألفا احتضار ابيهما فانطلقا الى فناء الدار يلعبان . ومرة او مرتين اقبلت جارة شفيقة وأطلت على الفتى من شق الباب ، لتعود في المرة الاخيرة فتنقذ الرضيع من هذا الجو ضامة اياه الى صدرها الممتلىء . حتى اذا خرجت به الى الهواء الطلق سمع صوتها يرن في اشفاق مبتهج :

— حسناً ، لقد جاء اجله ، وانه ليبدو وكأنما قد انقضى على موته شهر كامل .

وهكذا أشرق النهار القائظ ، آخر الامر ، على غايته ، حتى اذا هبط الغسق لفظ الفتى انفاسه الاخيرة ومات .

عندئذ فقط نهض الخياط من مجلسه ذاك . نهض ولبس رداءه ، وتناول بقجته ، وقال للمرأة الجاثية : « لقد توفي . هل بقي عندك شيء من المال ؟ »

وعندئذ نهضت المرأة الشابة ايضاً وتطلعت اليه في لهفة ، مزيحة شعرها الطويل عن وجهها . كان من اليسير ان يلاحظ الآن انها لا تزال في ريعان الشباب ، فلا يزيد عمرها على العشرين . هي مخلوقة صغيرة عادية كالتي يراهن المرء في كل مكان ، وكل شارع ، في أيما يوم من الايام . انها ليست بالجميلة ولا بالقبيحة ، وانها لهزيلة ، مستديرة الوجه ، واسعة الفم نافرته ، بلهاء العينين بعض الشيء . كان واضحاً انها عاشت تلك المدة كلها من يوم الى يوم ، فلم يخطر لها ببال ان مصيبة كهذه سوف تقصم ظهرها ... تطلعت الى الخياط في ذلة وقالت :

« لم يبق عندنا شيء . لقد رهنت ثيابه وثيابي الشتوية والطاولة والكراسي ، فلسنا نملك منذ اليوم غير ذلك الفراش الذي يتمدد عليه . »

وازدادت انطباعة اليأس الطافية على وجه الرجل شدة وعمقاً . وتساءل : «أليس ثمة من تستطيعين ان تستديني منه بعض المال ؟»

فهزت المرأة رأسها وقالت : « لست اعرف احداً غير هؤلاء الناس الذين يضمهم فناء الدار ، وماذا يملك هؤلاء ؟ »

وتمثل لها هول موقفها كاملاً ، فصرخت في صوت جهوري :

— عمي ، ليس لنا احد غيرك في هذا العالم !

فأجابها : « اعرف ذلك » . وتطلع كرة ثانية الى الفراش وقال في صوت خافت : « غطوه! غطوه حتى لا يقربه الذباب . »

ثم انطلق عبر الفناء ، فسألته الجارة التي كانت ما تزال تحمل الرضيع : « هل مات اخيراً ؟ »

فقال الخياط : « لقد مات . » واندفع الى الشارع مستديراً نحو الغرب حيث كان منزله .

لقد بدا له ان هذا اليوم كان احرّ يوم في ذلك الصيف كله . وكان من المنتظر ان تخف الحرارة بعض الشيء عند المساء ولكن الليل لم يكن أرأف بالناس من النهار . كانت الشوارع غاصة بالرجال نصف العراة ، وبالنساء اللابسات أرق الأردية ، وقد جلسوا جميعاً على المقاعد الخيزرانية الصغيرة الواطئة التي اخرجوها من منازلهم ، في حين انطرح بعضهم على حصر من القصب وغيره . وكان الاطفال يعولون في كل مكان ، والأمهات يهوّين لصغارهن بالمراوح وهن جزعات من ذلك الليل الطويل .

وشق الخياط طريقه وسط هذا الزحام ، وهو مطرق الرأس مكلوم الفؤاد . كان التعب قد بلغ منه مبلغاً عظيماً ولكنه لم يحس بالجوع ، على الرغم من أنه لم يطعم شيئاً سحابة ذلك اليوم . والواقع انه ما كان يستطيع ان يأكل ، حتى عندما بلغ تلك الغرفة الوحيدة التي تؤلف منزله ، وحتى بعد ان اقبلت زوجته المسكينة البلهاء — التي لم توفق الى ابقاء اولادها على قيد الحياة — من الشارع متثاقلة لاهثة ووضعت على المائدة إناء من

مسابقة « الآداب » للقصة

تقيم مجلة « الآداب » مسابقة للقصة يحق لجميع ادباء البلاد العربية ان يشتركوا فيها بالشروط التالية :

١) ان تكون القصة موضوعة غير مترجمة ولا مقتبسة ولا منشورة .

٢) ان تعالج موضوعاً يهمّ الجماعات العربية او الفرد العربي .

٣) ان تكتب كلّها باللغة العربية الفصحى .

٤) ألاّ تتجاوز ثماني صفحات من « الآداب » .

اما الجوائز فثلاث :

الاولى : ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها .

الثانية : ١٥٠ « « « «

الثالثة : ٥٠ « « « «

تقبل القصص حتى اول شهر آب (اغسطس) من العام الحالي ١٩٥٣ .

وستتألف لجنة محكمة تعلن اسماء اعضائها فيما بعد . اما القصص الثلاث الفائزة فتنشر ابتداء من عدد تشرين الاول (اكتوبر) من « الآداب » .

حساء الارز البارد ليأكله . كانت تلك الرائحة تفوح من ثيابه ، فهي تملأ خياشيمه ما تزال . وفجأة خطر بباله الثوب الحريري، وافترض ان المرأة البيضاء وجدت هذه الريح الكريهة عليه..! فما كان منه الا ان نهض وفتح البقجة وجعل ينفض الثوب نفضاً ليعرّضه بعدُ للهواء على تمثال خشبي عجوز من تلك التماثيل المقطوعة الرأس والرجلين التي يستعين بها الخياطون على إحكام الصنعة وتجويدها

ولكنه ما كان ليقدر على إبقائه على هذا الوضع فترة طويلة. كان عليه ان يتمه ليقبض اجرته . فخلع رداءه وقميصه الداخلية وحذاءه وجوربه وجلس على الارض ببنطلونه . وكان عليه ان يحاذر ، في مثل هذا اليوم القائظ ، ان يصيب عرقه الثوب فيلطخه . من اجل ذلك احضر منشفة رمادية ولفّ بها رأسه لتلتقط حبات العرق المتصبب منه ، ووضع خرقة على الطاولة ليمسح بها يديه بين الفينة والفينة ...

وفيما كان يخيط الثوب في تؤدة ورفق ، خشية ان لا ينال رضا السيدة البيضاء، استغرق في التفكير في الذي يستطيع ان يفعله. كان عنده مساعد في العام الماضي ، ولكن السوق كانت كاسدة الى درجة حملته على تسريح الغلام ، ومن ثم لم يبق له غير أنامله العشر يخيط بها. ولكن ذلك ما كان شراً كله ، لان الغلام ارتكب من الاخطاء ما جعل السيدة البيضاء تلح قائلة : « يجب ان تخيط الثوب بنفسك ، لا ان تدفع به الى ولد صغير ليتلفه .» اجل ، ولكن أيستطيع بهذه الانامل العشر وحدها ان يطمع في انجاز ثوب لها جديد في ثلاثة ايام — على افتراض ان عندها مشروع ثوب حريري آخر — وبذلك يتقاضى عشرة دولارات اجراً على الثوبين ، فيشتري بها تابوتاً وينتزع وعداً بالحصول على عمل جديد ...

ولكن لنفرض انه لم يكن لديها فستان جديد تعهد اليه في خياطته الآن ، فما الذي يستطيع ان يفعله في تلك الحال ؟ ما الذي يستطيع ان يفعله غير اللجوء الى احد المرابين ؟ ومع ذلك فانه لا يجرؤ على هذا . إن اللجوء الى المرابين يفقد المرء صوابه، لأن الربا يهجم عليه باسرع مما يهجم النمر ، فاذا بالمبلغ الذي استدانه يصبح مثليه او ثلاثة امثاله بعد اشهر قليلة . ثم انه بعد ان يدفن التابوت يتعيّن عليه أن يأتي بالمرأة الثكلى واولادها الثلاثة الى هنا . وليس ثمة غير هذه الغرفة المفردة لهم جميعاً . وفرك قلبُه بعض الشيء عندما ذكر الاولاد ، ولكن رعدة عنيفة ما لبثت ان اخذته عندما فكر في انه امسى مسؤولاً ، منذ اليوم ، عن إعالتهم ...

وانتصف الليل ولمّا ينجز الفستان. لقد بقي عليه ان يصنع عقدة العقد : الكشكش اللعين . وبحث عن كتاب الازياء وأمعن النظر فيه على أضواء قنديل الكاز التنكي الصغير المرتعشة . وإذن فهكذا يجري الكشكش ، وهنا يستدير . انه كشكش طويل واسع ذو مثانٍ ملزوزة لزاً . وانبرى لعمل الكشكش بمثانيه الدقيقة ، ويداه ترتعشان من التعب . إن زوجته لتغط في فراشها الآن ؛ وليس في ميسور شيء ان يوقظها من سباتها ، حتى ماكينة الخياطة ذات الصوت المزعج التي كان يثبت بواسطتها الكشكش في عناية وحذر . وارتفع الضحى ، ولم يبق عليه غير لفق الحاشية بيده ، وإعداد مكواة الفحم لكيّ الثوب نهائياً . وإذن ففي استطاعته ان ينام فترة قصيرة من زمان ، فيريح عينيه المجهدتين ، لينهض بعدُ فيتمّ عمله . وكذلك علق الثوب على التمثال الخشبي ، واستلقى الى جانب زوجته ، وغرق لتوّه في نوم عميق .

ولكنه لم ينم طويلا . فنهض في الساعة السابعة واستأنف عمله حتى الظهر تقريباً عندما توقف ليتناول طعامه الذي عافته نفسه مساء البارحة . وهكذا أنجز الفستان آخر الامر . لقد استغرق إنجازه وقتاً أطول مما احتسب ... وتطلع الى الشمس بنظر شزر . أجل ، إن في إمكانه ان يبلغ البيت مع الظهر . فليسرع ما استطاع الى الاسراع سبيلا . ذلك بانه يريد ان يتفادى غضب السيدة خشية ان ترفض تكليفه عمل الثوب الآخر. لا . ينبغي ان يحصل على هذا الثوب بأيما وسيلة . وعندئذ يفرغ لخياطته بعد ظهر اليوم وطوال ساعات المساء فينجزه في اليوم التالي . واستروح الثوب المخيط في قلق واضطراب . لقد علقت به بقية من رائحة ... فهل تنتبه السيدة اليها ؟ ...

ولكنها لم تنتبه لحسن الحظ . كانت غارقة في ذلك الكرسي الغريب المتحرك على الشرفة ؛ فألقت على الثوب نظرة فاحصة ثم تساءلت بصوت عال مفاجيء ، على طريقتها : « انتهى كله ؟»

فأجاب الخياط في ضعة : « نعم ، يا سيدتي . »

— حسناً ، سأذهب وأقيسه .

وقصدت السيدة الى غرفتها ، فأمسك الخياط انفاسه ووقف ينتظر . لعلها وجدت رائحة ما ، تفوح منه ؟ ولكنها رجعت اخيراً ، لابسة الفستان ، وعلى وجهها انطباعة من الرضا، ولكنه رضاً متحفظ ، غير مغالٍ فيه . وسألت في غير ما مجاملة «كم؟ »

فتردد بادىء الامر. ثم قال: «خمسة دولارات، يا سيدتي، اذا سمحت . » حتى اذا رأى عينيها الغاضبتين اضاف مسرعاً: « فستان حريري... خمسة دولارات... اذا سمحت يا سيدتي. إن اي خياط يتقاضى على الفستان الحريري خمسة دولارات ! »

فقالت السيدة: « كثير جداً، كثير جداً . لقد اتلفت قماشي ايضاً. »ولكنها دفعت اليه الدولارات الخمسة في امتعاض. فتناولها منها، محاذراً ان يمس بيده يدها، وقال في ادب بالغ: «اشكرك، ياسيدتي. »ثم إنه جلس القرفصاء، واخذ يربط بقجته، واصابعه ترتجف. يجب ان يسألها الآن. ولكن كيف السبيل الى ذلك؟ ما الذي سيفعله إذا رفضت؟.. واخيراً استجمع شجاعته، ونظر إلى أعلى في ذلة وضعة، ولكنه تحاشى ان تقع عيناه على عينيها، وقال: « هل عندك اثواب أخرى أستطيع ان أخيطها لك، يا سيدتي ؟ »

وأمسك أنفاسه في انتظار الجواب، وشرع يحدق الى الجنينة المنوّرة. ولكن السيدة كانت قد استدارت في اتجاه غرفتها لتنزع الفستان عن جسمها. حتى إذا رجعت اجابته في جفاء: « لا. ليس عندي جديد ! إنك تسبب لي متاعب كثيرة. لقد أتلفت قماشي. وعلى كل حال فما اكثر الخياطين الذين يتقاضون اجوراً أرخص ولا يزعجون الزبائن مثل هذا الازعاج .. »

وفي اليوم التالي التقت مسز « لو » صديقتها مسز نيومان في حفلة السمر بالقنصلية، وكانت مستوية على كرسيّها تراقب الوجوه البيضاء وهي تلعب على المرج لعبة الكرة والصولجان. فلمعت عينا مسز نيومان الزرقاوان الباهتتان، بعض الشيء، لدن رؤيتها الثوب الجديد وقالت في شوق واهن: «لقد حصلت على ثوبك الجديد آخر الأمر. الحق اني لم اعتقد لحظة انك ستوفقين الى ذلك. لقد عمل لك الكشكش في براعة وفن، أليس كذلك؟ »

وخفضت مسز « لو » بصرها متأملة صدرها الضخم. كان الكشكش يبدو آية في جمال الصنعة، وحسن الكيّ، فأجابت في ارتياح: « أجل انه رائع، اليس كذلك ؟ والواقع اني سعيدة بما استقر عليه رأيي آخر الامر، في ما يتصل بالكشكش. ثم ما هذا الرخص ؟! تصوري يا عزيزتي ان اجرة الفستان مع هذا الكشكش كله لم تتجاوز خمسة دولارات ! يعني اقل من اجرته في اميركة بدولارين اثنين ! وماذا بعد ؟ أوه، نعم؛ لقد أتاني به عند تمام الساعة الثانية عشرة كما فرضت عليه ان يفعل !... أليس في ذلك مصداق لما قلته لك سابقاً: يجب ان يكون المرء حازماً مع هؤلاء الخياطين الوطنيين !... »

حقائق ك.ل.م. العشر

١ — **الاقدمية** : ك.ل.م. اقدم شركة للطيران في العالم.

٢ — **المهارة** : ك.ل.م. تعاين وتصلح الطائرات التابعة لثماني عشرة شركة اخرى للطيران.

٣ — **الخبرة** : ك.ل.م. التي تستعمل احدث الطائرات وافخمها يعود اليها الفضل بادخال ابرز التحسينات في حقل تجهيز الطائرات وراحة الركاب.

٤ — **الثقة** : ك.ل.م. نالت على التوالي في السنوات التسع الاخيرة جائزة الامان السنوية لعموم اميركا إذ لم يحصل أي حادث، في هذه المدة، لركاب طائراتها أو لربابنتها.

٥ — **السرعة** : ك.ل.م. نالت الجائزة الأولى في سباق الهنديكاب الدولي بين انكلترا واوستراليا.

٦ — **الخدمة** : ك.ل.م. احتلت مكانتها الاولى في الصف الأول اعتماداً على خدمة الركاب وانشراحهم بنوع خاص.

٧ — **الدقة** : بالنظر الى دقة مواعيد ك.ل.م. التي اصبحت مضرب الأمثال فان عشرات الملايين ينتظرون يومياً مرور طائراتها فوق رؤوسهم لمعرفة الوقت بدقة.

٨ — **الاقدام** : ك.ل.م. اول شركة طيران في اوروبا أنشأت خطوطها عبر المحيط الأطلسي وأول شركة في العالم أنشأت خطوطها فوق الشرق كله.

٩ — **الانتشار** : خطوط ك.ل.م. تربط خمساً وستين دولة وسبعاً وتسعين مدينة في طول الأرض وعرضها ولا تزال تمتد سنة بعد سنة.

١٠ — **الشهرة** : لذلك هي تحتفظ بكل فخر، منذ ثلاثين سنة بلقب « الملكية » التي تحمله وحدها في العالم، ولذلك يعتمدها، في طليعة من يعتمدها، للسفر اكثر الملوك والرؤساء والوزراء.

ك ل م

صديقة

الادب والادباء